CC BY 4

College of Basic Education Research Journal

https://berj.uomosul.edu.iq/

The Semiotics of the Autobiographical Space:The Dialectic of Reality and Imagination – A Reading of Excavations in Memory from Afar by Mohammed Abed Al-Jabri

Mohammed Younis Al-Jaraisi

University of Mosul, College of Basic Education, Department of Arabic Language, Mosul, Iraq.

Article Information

Article history:
Received: June 8,2026
Reviewer: August 24, 2026
Accepted: August 30, 2026
Available online: September, 2026

Keywords:
Semiotics,
Place,
Autobiography,
Reality,
Imaginary.

Correspondence:
Mohammed Younis Al-Jaraisi
Email:
mohamedyo@uomosul.edu.iq

Abstract

Through a semiotic analysis of places retrieved by memory, this study focuses on a comprehensive autobiographical framework, emphasizing that place is not presented as a static geographical space, but rather as a cultural and symbolic sign shaped by the interplay between lived experience and its reconstruction within memory and imagination. The research elucidates how places associated with childhood, education, and mobility are transformed into meaning-generating elements, revealing the transformations of the self and its relationship with society and history. Furthermore, it highlights how autobiographical narrative reshapes reality through recollection, thereby blurring the boundaries between what the author actually experienced and what memory has subsequently re-imagined and interpreted. The study concludes that place within the text serves an epistemological and identity-shaping function; it contributes to the construction of the self-image and the evocation of cultural and social transformations, thereby rendering the dialectic between the real and the imagined fundamental to understanding the narrative experience in the book.

P-ISSN: 1992–7452 **E-ISSN:** 2664-2808

سيميائية المكان السيري
جدل الواقع والمتخيّل– قراءة في (حفريات في الذاكرة من بعيد) لمحمد عابد الجابري

محمد يونس الجريسي
جامعة الموصل، كلية التربية الأساسية، قسم اللغة العربية، الموصل، العراق.

المستخلص

يركز البحث بواسطة تحليل الدلالات السيميائية للأمكنة التي تستعيدها الذاكرة على منظومة سيرية كاملة ويركز على أن المكان لا يُقدَّم بوصفه فضاءً جغرافياً ثابتاً، بل علامة ثقافية ورمزية تتشكل من تفاعل التجربة الواقعية مع إعادة بنائها في الذاكرة والخيال. ويبيّن البحث كيف تتحول أمكنة الطفولة والتعليم والتنقل إلى عناصر منتجة للمعنى، تكشف تحولات الذات وعلاقتها بالمجتمع والتاريخ. كما يبرز أن السرد الذاتي يعيد تشكيل الواقع عبر التذكر، فتتداخل الحدود بين ما عاشه الكاتب فعلاً وما أعادت الذاكرة تخييله وتأويله. ويخلص إلى أن المكان في النص يؤدي وظيفة معرفية وهوياتية؛ إذ يسهم في بناء صورة الذات واستحضار التحولات الثقافية والاجتماعية، مما يجعل جدل الواقع والمتخيل أساساً لفهم التجربة السردية في الكتاب.

الكلمات المفتاحية: سيمياء، مكان، سيرة \ ذاتية، واقعية، متخيل.

مدخل:

السيميائيات علم مستقل وجديد على الرغم من صلاته مع بعض المعارف الإنسانية كاللسانيات والفلسفة، وهي مرتبطة بـ(دي سوسير) و(بيرس) و(ياكوبسن)، والسيمياء عند هؤلاء هي العلم الذي يدرس العلامات(الأحمر، 2010 ،17)، ويحدد (سوسير) في دراسته الرائدة السيمياء بأنها: العلم الذي يدرس العلامات في كنف الحياة الاجتماعية، وهو ينطلق في تعريفه هذا من اللغة، فالعلامة السيميائية لديه تستنسخ التجربة اللسانية وتستعير منها مبادئها ومفاهيمها(عزيز، 1987، 72)، أما (بيرس) فإن العلامة السيميائية لديه عبارة عن بحث موسع جداً في الرموز والمنطق والرياضات، وبهذا فهي تؤكد في مقارباتها على الدلائل اللسانية وغير اللسانية(بنكراد، 2012، 91).

" إن السيميائيات الحديثة أصبحت تدل على البحث الشامل في جميع أنظمة التواصل الإنساني على اختلاف مرجعياتها المعرفية من علوم ومعارف وآداب وطقوس، ويبرز الأدب بوصفه نظاماً تواصلياً له خصوصية مميزة عن غيره من أنظمة التواصل، فهو–الأدب–يسعى جاهداً إلى عدم الكشف عن مدلولاته بسهولة " (النعيمي، 2020، 30).

وهذا ما جعل من هذه المقاربة أن تتخذ من آليات المنهج السيميائي وسيلة لمقاربة موضوعة المكان السيري في نصٍ اشكالي يجمع بين الصور الواقعية والمتخيلة في فضاء واحد.

" تنطوي علاقة الإنسان بالمكان على جوانب عديدة ومركبة، لعلّ من أهمها ما يجعل خط هذه العلاقة يدخل في إطار الخبرة المباشرة، والإدراك الحسيّ، والسيطرة على أغلب التفصيلات، والارتباط الوثيق بالمكان من لحظة الولادة حتى الممات. ومرّ المكان في رحلة الفكر الإنساني بمراحل متغايرة، تحول معها من البدائية إلى معطى ثقافي يبرز الجانب الحضاري إنّ انتقال المكان من موقعه الفيزيائي إلى الموقع الثقافي، مرّ من خلال الكائن الإنساني؛ لأن العلاقة الكائنة بين الإنسان والمكان، تتسم بالالتصاق والتلازم" (حسين، 2000، 63).

ولعل الإشكالية الأهم التي تطرح عند دراسة المكان السيري هي التقاطع والتداخل في المرجعيات بين الواقعي والتخييلي، والمسافة الفاصلة بين البعدين، والقيمة الطوبوغرافية للأمكنة في النصوص السيرية (الذاتية) القائمة بالأساس على مبدأ الانزياح عن الواقع، وعلى الرغم من أنه لا يمكن للدارس أن يُهمل عند دراسته للأمكنة السيرية الانساق الحضارية والثقافية والمرجعيات التاريخية إلا أن ذلك لا يلغي الحقيقة البارزة وهي كون السيرة جنساً أدبياً تتحقق كينونته بوصفه تجربة فنية في المقام الأول قد تتقاطع مع المرجعيات الواقعية ولكنها بالتأكيد لا تنقل صورة فوتوغرافية عنها.

فواقعية المكان السيري لا تتمظهر بالمطابقة مع المرجعيات بل بالأثر الذي تركته (الأمكنة) في ذاكرة

الشخصية لأن المخزون الذاكراتي لا يلتزم بمبدأ التطابق الحرفي مع الواقع وهو كذلك ليس معادلاً للحياة ككل وإنما هو وعي بالمرجعيات وعملية إدراكية منظمة.

(منصور، 2001، 63)

هذه المقدمة المنهجية تقودنا إلى حقيقة لا مناص منها عند دراسة المكان النصي في السيرة وهي أن المكان السيري ليس هو المكان الواقعي ذو المرجعيات المحددة ومسبقاً، على الرغم من التطابقات في الأوصاف والتسمية، فالمكان النصي قائم على العلاقات مع باقي العناصر السردية ولاسيما (الرؤية) وكذلك العلاقات اللغوية داخل النص والتشكيل البصري للأيقون المكاني في مخيلة القارئ. وبهذا تتحقق العلاقة الجمالية بين المتخيلات السردية والمرجعيات الواقعية.

إن المكان الفني هو مجموع العلاقات التي تربطه بباقي العناصر والمكونات، وهو مجموع العلاقات اللغوية التي تؤسس للفضاء المتخيل، وتعمل على إيجاده وتحويله من لغة سردية (ذات طابع توثيقي في السيرة) إلى أيقونة بصرية، وبهذا يتجلى المكان السيري بوصفه معطى مشحون بالقيم الإنسانية والحضارية والتاريخية والثقافية لا مجرد تراكيب لغوية مبنية على تراتبية مكانية.

ويمكننا رصد ثلاث وسائل سيميائية مهمة عند دراسة المكان:

الأولى: دراسة المكان بوصفه بنية، وهذه البنية تشكل انتظاماً جوهرياً في بنية المكان من جانب، وتعميق قيمة النص من خلال تعميق الحدس بخلجات الأبطال وتثبيتاً لرواية المؤلف من جانب آخر (الدليمي، 1999، 101).

وهذه البنى المكانية على نوعين:

1- بنى ظاهرة: ترصد علاقة الإنسان بالمكان من الفة ونفور وابتعاد واقتراب.

2- بنى عميقة: تجعل من المكان شبكة من العلاقات القائمة مع باقي المكونات السردية وخاصة الرؤية ومن أهمها:

أ- المتوالدة: تتميز باستدعاء الكل لمجرد ظهور الجزء.

ب- المتدرجة: وهي بنية تعتمد على وصفها لمكان محدد ومن ثم تتدرج إلى باقي الأمكنة.

ج- المتداخلة: وهي تعتمد على حركية العلاقة المكانية في أكثر من اتجاه وتداخل الأمكنة، وتتميز بكونها مفككة.

د- المتكررة: وهي البنية المكانية المنفتحة الدلالة التي تعتمد على ثبات المكان وتكراريته.

(سوسير،1987، 89-100)

الثانية: العلاقة الوطيدة بين المكان بوصفه حيزاً وبين الرؤية، فالمشهد المكاني المعروض في النص السيري

يصاغ من منظور الرائي (السارد) (الشخصية)، وهو مكان العيش في الماضي، والآن (الحاضر) يحاول استعادته ليعيشه التجربة.

على مستوى الذكرى والنص، فالمنظور الذي يتخذه الرائي هو الذي يحدد أبعاد الفضاء المكاني، ويحقق دلالته وتماسكه الأيديولوجي (عزام، 2003، 194).

وبذلك يمكن القول: إن أي حديث عن المكان السير ذاتي هو حديث عن رؤية ذلك المكان من منظور استرجاعي مركب- وفق أوسبنسكي من وجهتي النظر: التزامنية والاسترجاعية المكانية (هياس،2007، 217)، إذ يشير هذا التشكّل السردي إلى أن كل ما في الفعل يجري في الماضي حين كان الراوي/ المؤلف يشغل موقعه (الغانمي وحلاوي، 1999، 83).

والرؤى التي يمكنه من خلالها رصد الأمكنة حسب أوسبنسكي هي:

1- المسح التتابعي: ويقوم الرائي فيها بإجراء عملية مسح كلية لمعالم المكان.

2- رؤية عين الطائر: وهي عبارة عن نظرة شاملة متعالية تحيط بكل تفاصيل المشهد الموصوف.

3- الرؤية الانتقائية: وهي عبارة عن انتقاء جزئية معينة من المشهد المكاني وتسليط الضوء عليها. (باشلار ،1998 ،69-76)

وهذه الأنواع الرؤيوية من الحالات المتعددة التي يتخذ منها الراوي (المشارك أو غير المشارك) موقعاً له لتحديد الرؤية لحدث ما.

الثالثة: الأقطاب المتضادة التي أفرزتها المقاربة السيميائية المهمة لـ (يوري لوتمان) وهذه الآلية (التضاد) هي الأكثر حضوراً في بنية الأمكنة، وتنجم عن هذه الآلية انتظاميات مكانية متقابلة ومتناظرة، وهي مؤهلة للكشف عن رؤية الكاتب والقوى الفاعلة (هلسا، 1998، 70)، وهي في مجملها لا تخرج عن إطار المستويات الثلاثة لعلاقة الكائن بالمكان (الانتماء/ التنافر/ الحياد) (يقطين، 2001، 237)

تنتظم الأمكنة في هذا النص السيري وفق منظومة فكرية تنطلق من مبدأ تراتبي ثقافي يعمل على تفكيك البنية المكانية الكلية إلى ثنائية تستند إلى إرث ثقافي/ تاريخي، وهذه العملية التفكيكية تلجأ إلى هذه الثنائية لتكشف عن عملية تراتبية ضخمة في الوعي الفردي والجماعي عند تصنيف الأمكنة، والتصنيف ليس مقصده الترتيب القائم على الطبقية بتجلياتها كافة، بل هو حفر أركيولوجي في الذات قبل الأمكنة يظهر من خلاله أن هذه الثنائية تعمل بشكل فعّال وتراتبي في الأمكنة كافة بداية من البيت وانتهاءً بالعالم.

ومن أبرز الثنائيات التي تعمل في النص هي ثنائية (مركز/ هامش (أطراف) التي تتشظى عنها ثنائيات أخرى تدعمها وتعمق دلالاتها لعل من أهمها: الإقامة/ الانتقال، والأليف/ المعادي.

من أهم الصفات التي تلازم الأمكنة تحوّلها وعدم ثباتها فالمركز مع (الوعي/ التطور الزماني) يتحول

إلى هامش والعكس صحيح، فصفة الثبات تنتفي عن الأمكنة وذلك بسبب طبيعة ساكنيها وبسبب التطور الزمني وكذلك الوعي القبلي (للمؤلف) الذي تحكّم في عملية بناء الأمكنة، وهذا ارتبط بالبنى المكانية المتعددة وخاصة (المتوالدة) وفعاليتها في إنشاء البنية المكانية.

1- البيت (الإقامة المؤقتة):

البيت في الغالب مكان الألفة والاستقرار والحماية، لارتباطه الوثيق بساكنه مما حدا بباشلار، أن يجعل له جسد وروح، وهو عالم الإنسان الأول(لوتمان واخرون، 1988، 83)، فالبيت هو الفضاء الأول للتجربة الفردية وهو الأساس الذي ستنطلق منه بقية التجارب، والمفارقة التي تتحكم في بناء الفضاء البيتي هي تحوله إلى مكان إقامة مؤقتة، مما طبع مستقبل الشخصية بهذه الصفة؛ فبسبب انفصال الأم والأب، نشأت الشخصية في أكثر من بيت (بصورة مؤقتة) وهي: البيت الأول (بيت جده لأمه/ بيت زوج أمه/ بيت جده لأبيه/ بيت خالته/ بيت أبيه في وجده/ بيت الطلاب (سدة) في الدار البيضاء/ غرفة في المدرسة التي عمل فيها/ بيته في الدار البيضاء) إن هذا الانتقال وعدم الاستقرار في بداية العمر، تحول إلى **ثيمة** أساسية في نص السيرة، والملاحظ أن ذاكرة الراوي/ الشخصية لا تحتفظ بتفاصيل دقيقة عن البيوت التي سكنتها على الرغم من احتفائها (الذاكرة) على المستويين السمعي والبصري بذكريات كثيرة، وربما لصفة الاستقرار دور في هذه المسألة، فالذات الراوية لم تستقر طويلاً في أيّ من المنازل السابق ذكرها،" فالتوصيف المكاني بمعناه الطوبوغرافي غائب تماماً إلا في بعض الاستثناءات مثل العملية التوصيفية لمنزل الأب في وجدت كل ما يتذكره هو أن ذلك المنزل، الذي أقيم فيه حفل العرس صار منذ تلك الليلة منزل الأسرة، لقد كان أوسع كثيراً من المنزل الآخر – الذي يستطيع الآن أن يصفه بمنزل **العزَّب** كان هذا المنزل الجديد يقع على الطرف الجنوبي من المدينة، مجاوراً للبساتين والحقول، يشتمل على ثلاث غرف ومخزن كبير وبئر، وكان الحي هادئاً لا يسمع فيه إلا نباح الكلاب خاصة في الليل، ومع أنه كان بعيداً نسبياً عن مركز المدينة، نحو نصف ساعة على الدراجة- فإن صاحبنا كان يقوم بما يلزم من السخرة على دراجته دون ملل أو كلل" (الجابري ، 1997، 122).

إن الرؤية الذاتية المبنية على التدرج لا تحتفي كثيراً بالعملية الوصفية بقدر ما تُظهر قيم الألفة الإنسانية- على الرغم من عدم الاستقرار- إلا أن الفضاء البيتي لم يكشف أبداً عن علاقات إنسانية غير سوية، بل إن الحضور الإنساني المكثف وعلاقة التأثر المتبادل بين الكائن والمكان هي من يؤطر فضاء البيت، حتى إنه يتحول إلى فضاء يحتوي على كائنات متعددة أحدها الإنسان " وسيعرف صاحبنا فيما بعد أن الدار التي كان يسكنها مع أهله لم تكن ملكاً لهم وحدهم، بل يشاركهم فيها كائنات أخرى، فإضافة إلى الأفعى صاحبة الدار، كانت هناك الحيوانات المنزلية الأليفة ونادراً ما تخلو دار في فجيج" ، وفي قصر

زناكة بالخصوص، من بضع نعاج أو معزات من أجل الحليب وكبش أو كبشين للمسافدة، وأيضاً استعداداً لعيد الأضحى، هذا إضافة إلى دابة للشغل، حمار أو بغل في الغالب، أما الحصان فنادر، أما الطيور التي كانت الأفعى تتغذى من بيضها وصغارها وخاصة منها الحمام والعصافير فقد كانت طليقة، تغدو وتروح ثم تأوي مساءً إلى أعشاشها التي تبنيها داخل الدار بين فجوات خشب السقف أو في ثقوب الجدران.

(الجابري، 1997، 16)

إن هذا الإهمال المتعمد للتفاصيل الجزئية للفضاء البيتي جاء على اعتبار أن هذا المكان تحول إلى بؤرة نرصد من خلالها العلاقة الإنسانية بين الكائن والمكان، وربما جاء هذا في الذاكرة الآنية المعتمدة على ذاكرة طفل عاش في أكثر من مكان بعيداً عن والديه للتعويض عن الاستقرار المكاني والإحساس بأن العلاقات الإنسانية المميزة أعطت قيماً للألفة لهذه البيوت أكثر مما اعطاها الوصف الطوبوغرافي، وبهذا يتبين أن الراوي حرص على الابتعاد عن الصور الوصفية المحددة واقترب من **مماهاة** عناصر الحكي الرئيسية (مكان+ زمان+ شخصيات فاعلة) لخلق فضاء حيوي ومتحرك مبتعداً عن التشييد الوصفي للأمكنة والتركيز على الأشياء.

2- المسيد / المدرسة (المركزية الاستعمارية/ المركزية الوطنية)

المكان الأول الذي عرفته الشخصية خارج البيت- عدا أماكن اللعب- هو المسيد (الكُتّاب) ومن ثم المدرسة بقسميها الفرنسي والعربي، ووفق ثنائيات لوتمان فإن المسيد يدخل في علاقة تضاد قطبي مع المدرسة الفرنسية أولاً على اعتبار الأول (هامشي/ متخلف/ شرقي/ إسلامي/ ذو رؤية جماعية) والثاني (المدرسة الفرنسية) ينتمي إلى ثقافة المركز (النزعة الفردية/ الليبرالية/ مسيحي/ استعماري/ متقدم علمياً)، هذه العلاقة الضدية الأولية التي يكشف عنها الراوي العليم المشارك برؤية تمتزج فيها الذاتية مع الموضوعية مع التدرج البنائي عند توصيف المكان، إذ يلاحظ اهتمام الراوي/ الشخصية بالتفاصيل المكانية عند عملية المقارنة لبيان الفروقات بين هذين الفضائين الدالين صراع حضاري وجودي يكشف عن الوجه الثقافي لهما " «كانت غرفة الصغار واسعة نسبياً تتخللها كوات يدخل منها الهواء وضوء الشمس، في وسطها سارية، وفي الواجهة الأمامية مصطبة من الطوب ملاصقة للجدار الأمامي يجلس عليها الفقيه مفترشاً (هيضورة) (سجادة من جلد الخروف وصوفه..) وبجانب الفقيه ثلاث عصي، صغرى للأطفال الصغار القريبين منه/ ووسطى للذين يجلسون في الوسط وطويلة لمن هم في الأطراف وكانوا في الغالب من كبار السن، كان هؤلاء الأطفال يجلسون على الحصير يحيطون بالفقيه على شكل هلال مر عليه أكثر من نصف شهر، كان الفقيه يتولى بنفسه أو يكلف بعض الكبار كتابة آيات من القرآن على ألواح الصغار المجللة بالصلصال..." (الجابري، 1997، 46).

تنفتح الذاكرة – في المقتبس السابق – على نوافذ عدة ضمن رؤية متدرجة فالرائي/ الواصف سيعرض عبر ذاكرته مشهداً مكانياً بتفصيلاته الدقيقة، يبدأ من البؤرة المركزية للنص (الغرفة (الجزء)) منطلقاً نحو (لمسيد) الكل، وهذا الاهتمام بالتفاصيل والأشياء لا يلغي الدلالات التي يشي بها النص، وهو يعبر عن العلاقة بين الكائن والإنسان.

إن الهاجس الأساس لرسم هذه اللوحة اللغوية المؤسسة على مبدأ أيقوني تمَّ ضمن تشكيل بصري يحتفظ للجزئيات بمكانتها هو بيان الفرق أو الفروقات الجوهرية بين النظام التعليمي التقليدي المرتبط بـ(المسجد) بوصفه أصلاً لا حياد عنه، وبين المدرسة الفرنسية ذات الجذور الاستعمارية، وبذلك تكون الذات (الراوية المشاركة) في حالة عدم استقرار، فالتمييز الذي بينته الذاكرة جاء بعد عملية إدراك لموقع النظامين التعليميين والفضاءين الدالين عليهما " كانت هذه المدرسة موزعة إلى ثلاث مستويات: المستوى الابتدائي الأول في إدارين، والمستوى الابتدائي الثاني في حي عبد الكافي وكلاهما في قصر زناكة. أما مستوى الشهادة الابتدائية والمستوى التكميلي فكانا في الحي الإداري على امتداد قصر أولاد سليمان (...) كانت المدرسة تتألف من غرفة واحدة طويلة خُصّص نصفها لتلامذة السنة الأولى الابتدائية ونصفها الآخر لتلامذة السنة الثانية" (الجابري، 1997، 51).

وعلى الرغم من استعراض الراوي للتمايز بين الفضاءين، إلا أن الملاحظ أن الرؤية المشكلة ليست وليدة الماضي فحسب بل مرتهنة في غالبها بـ حاضر الكتابة، فالامتداد الزماني وفّر للرائي فسحة كبيرة لتكوين رؤية واضحة بالأشياء.

والملاحظ أن (المسيد) الذي كان علامة بارزة في الماضي للتخلف أصبح في الحاضر (راهن الكتابة) وما قبلها مرتبطاً بالجذور (المسجد/ الإسلام/ الوطن) ودالاً على الانفصال التام عن المحتل، لذلك فإن هذا (المسيد) ومعه (المدرسة الفرنسية) سيدخلان في علاقة تقاطب ضدي مع (المدرسة الوطنية) حيث الفضاء المتصل بالمقاومة والجهاديين (الحركة الوطنية المغربية) على طوال تاريخها، وبذلك فإن الرؤية الموضوعية/ الذاتية المتأسسة على البنية المتوالدة تظهر وهي تقدم الجزء وتريد الكل، فالمدرسة الوطنية تصبح معادلاً للوطن بأكمله، والاقطاب المتضادة تكون بنية مكانية عميقة تؤشر على الصراع بين القديم والحديث بشرط أن يكون الحديث مرتبطاً بالوطن وبعيداً عن المستعمر، مما يؤكد على التحولات التي يعيشها المكان مع التطور الزمني، فالبديل الوطني المعصرن والمشرب بروح النهضة والحداثة حلّ بديلاً عن القديم الذي لا يواكب العصر " وكذلك عن التعليم الفرنسي المرتبط بالمستعمر فتحت المدرسة أبوابها بمجرد ما حصل الحاج محمد على رخصة من الرباط، قبل اكتمال بناء حجراتها، لقد بدأت تعمل مؤقتاً في دار الجماعة التي

كانت تتألف من صحن وعدة غرف، مع الاستعانة بغرف مسيد مجاور، وذلك في انتظار الانتهاء من تشييد بناية المدرسة. والحق أن فتح هذه المدرسة كان فتحاً جديداً في حياة هذا البلد فتحاً أحدث انقلاباً ليس فقط في نظام التعليم وطرقه ومناهجه، بل أيضاً في عقول الآباء والأمهات لقد كانت وسيلة لنقل الوطنية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ سياسية واجتماعية وثقافية إلى **الأمر** والبيوت" (حنون،1987 ،77).

إن عملية التحول في الفضاء المكاني قد فعلتها الرؤية الواضحة لدى الراوي/ الشخصية، إذ تحوّل المركز (الدال على ثقافة استعلائية مرتبطة بعرق معين) إلى هامش في حياة الناس عندما أصبح المركز (الثقافة الأصلية المرتبطة بالاتجاه النهضوي الحداثوي التحرري) كذلك ضمن ثقافة ترابتية تنتقل من الجزء إلى الكل.

3-(التراتبية الثقافية وجماليات بناء الفضاء المديني)

يمتاز بناء المشهد المكاني في الفضاء المديني بخصوصية في النص السيري –قيد الدراسة– إذ إن هذا البناء لا يتقيد تقيداً مطلقاً بـ مبدأ التقاطبات الضدية، وإن كان يفيد منها إلى حدّ ما إلا أن الملاحظ أن هذه البنية المكانية تنطلق من تراتبية سيميائية ثقافية/ حضارية/ ذهنية تشبه نوعاً ما الدوائر المتوسعة ضمن إطار واضح يتقصد تفكيك هذه البنية والكشف عن التحولات البنيوية والدلالية الخاضعة للتطور الزمني والتي تظهر التغير المرتبط بالرؤية الواعية عند إدراك ماهية المكان ودوره التاريخي والحضاري، لذا سنجد انتقالاً تدريجياً ضمن الفضاءات المدنيية المختلفة، ويكشف هذا اللاستقرار عن عالم المدنية والفرق بين العالم الحقيقي والعالم الأنموذج الذي يكاد يتحول إلى وهم أنموذجي.

أ- فجيج:

يظهر النص مدينة (فجيج) عبر آليتين تكمل إحداها الأخرى، الأولى تستعرض البنية المكانية العامة الخاضعة للتطور الزمني، وكذلك خاضعة للرؤية التي إن تدمج الماضي بالحاضر، فالمدينة تقدم أولاً بوصفها فضاءً حضارياً، وهذا الفضاء الحضاري مؤسس على فضاء نصي يجعل من المكان طبقات متراكمة تحتوي على المكان (الآني) والأمكنة السابقة التي تجذر للأصول التاريخية والحضارية للمكان، وبذلك يتم التأكيد على العمق الحضاري والتاريخي لهذه المدينة تقع مدينة فجيج مسقط رأس صاحبنا في الجنوب الشرقي من المغرب، على خط الحدود الذي أقامه الفرنسيون بين المغرب والجزائر في أوائل هذا القرن، " كانت فجيج وما زالت واحة جميلة مكتظة بالنخيل تحيط بها الجبال من جميع الجهات، وتلامس الجبلين اللذين يحدانها من الجنوب واللذين كانت تقع وراءهما علامات الحدود التي أقامها الفرنسيون في هذه المنطقة، عندما احتلوا الجزائر قبل منتصف القرن الماضي ، أما اليوم فقد تقدمت الحدود

نحـو المدينـة منـذ قيـام الثـورة الجزائريـة، وذلـك عنـدما أحـاط الفرنسـيون المدينـة مـن الجنـوب والشـرق بأسـلاك شـائكة منعـاً لأهلهـا مـن مسـاندة الثـوار الجزائـريين ولا يـزال الوضـع كـذلك إلـى اليـوم (...) وفـي منتصـف الطريـق تنتصـب صـخرة عليهـا رسـوم قديمـة يـرى بعـض البـاحثين أن لهـا علاقـة مـع آمـون رع بطبيعـة مصـر، عـلاوة علـى الكراكيـت أي أهـرام مـن الأحجـار، بـداخلها أدوات بدائيـة سـابقة لنمـوذج الأهرامـات الفرعونيـة، ممـا يـدل علـى قـدم هـذه المدينـة التـي كانـت إحـدى بوابـات الصـحراء ومحطـة مـن محطـات القوافـل التجاريـة التـي كانـت تنتقـل مـن بـلاد السـوس علـى المحـيط الأطلسي إلى صعيد مصر" (الجابري ، 1997، 21).

الرؤية المتدرجة تكشف عن طبقات أركيولوجية في المقتبس النصي السابق حيث تتزاحم وتتقاطع أمكنة متعددة في الفضاء الفجيجي تحيل على التعدد الحضاري (الحضارة الفرعونية/ الحضارة الامازيغية/ الحضارة العربية الإسلامية)– هذه الأمكنة ذات البعد الحضاري تؤسس لها حضوراً في المكان/ النص عبر التجاور والحضور في بؤرة مكانية مركزية تقتصد أن تكشف عن الدور التاريخي والحضاري وتحول الهامش إلى مركز، وفق رؤية فنية تعيد صياغة المكان الواقعي/ التاريخي، إن ثنائية المركز/ الهامش تفصل من حركية العلاقة المكانية التي تتحرك وفق الرؤية المتدرجة التي تكشف تدريجياً عن طبقات النص/ المكان فتبدأ بالمكان الواقعي ضمن تفصيلات محددة متنقلة عبر ذلك في فضاءات وطنية وتاريخية.

وفي نموذج نصي يحمل دلالات متشابهة ضمن رؤية ذاتية تتعمد بناء المشهد المكاني وفق وجهة نظر (متعالية) تلتقط صورة مشهديه متكاملة للمكان (رؤية عين الطائر حسب اوسبنسكي) هذه الرؤية تضمن البعد المكاني والزماني مما يحرر المكان من الدلالات الآنية (زمن الفعل) ويفتحها نحو التداخل والتماهي مع الأمكنة القديمة والحديثة، مما يجعل من المكان يحمل دلالات متعددة ومتغيرة ومتحولة وفق التطور الزماني والتعمد في إخفاء البعد التاريخي والحضاري لهذه المدينة المعزولة على الحدود المغربية الجزائرية والمنفتحة على عالم الصحراء بقيمة وعاداته يأتي ليرسم التحول الدلالي للعلاقة المكانية من هامش إلى مركز حضاري/ تاريخي/ اقتصادي في الماضي إلى مركز للعمل الجهادي والوطني ضد المحتل، " وبهذا يكون سلب الصفات الحضارية والتاريخية عن مدينة (فجيج) في الحاضر دافعاً لتكوين أوجه جديدة للمكان تعيد له هيبته وسلطته المفقودة كانت مدينة فجيج في القرون الوسطى، إحدى البوابات الرئيسية التي يطل منها المغرب على الصحراء الكبرى، وكانت ترتبط بالطرق التجارية العالمية عبر شريط من الواحات تمتد جنوباً إلى بلاد السودان (مالي والسنغال حالياً)، وشرقاً إلى مصر (...) ومع أن دور فجيج قد تضاءل بعد ذلك، مثلها مثل البوابات الصحراوية الأخرى، فإنها بقيت منفتحة على المراكز القريبة منها مثل تافيلالت غرباً وتوات جنوباً، إضافة إلى بوعرفة ووجده وغيرهما من المدن المغربية شمالاً، ولم تبدأ هذه المدينة

بالانكماش على نفسها إلا بعد احتلال فرنسا للجزائر ومد سيطرتها على جميع الفضاء الصحراوي المحيط بفجيج شرقاً وجنوباً وغرباً، وهكذا حاصر الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ومنذ الثلاثينات من القرن الماضي مدينة فجيج من الشرق والجنوب والغرب(...) وعبثاً حاولت السلطات الفرنسية في الجزائر الاستيلاء على مدينة فجيج في مستهل هذا القرن، حينما كانت تستعد لاحتلال المغرب، لقد قاوم الفجيجيون الهجمات الفرنسية مقاومة باسلة فردوا قوات الاحتلال على أعقابها" (الجابري ، 1997، 95).

إن المشهد المكاني المعروض عبر رؤية تضمن التصوير البانورامي المتكامل، قد حدد فضاءين مهمين يحيطان بمدينة (فجيج) ويعمّقان من عزلتها، الفضاء الأول هو فضاء الصحراء الذي يعزل فجيج (الواحة) عن المدن الجزائرية قبل التقسيم وعن باقي المدن المغربية الممتدة نحو البحر والمحيط وفضلاً عن هذه العزلة التي يوفرها الفضاء الصحراوي فإنه طبع هذه المدينة ببعض من أهم صفاته المتمثلة بقيام المجتمع القبلي في فجيج وكذلك ظهور صفات تلائم البيئة الصحراوية/ الخشونة والفقر/ الإيمان بالغيبيات والخرافات وما إلى ذلك، أما الفضاء الثاني الذي حفر في البنية المكانية لمدينة فجيج فهو الفضاء الاستعماري (المكاني من الجزائر) والعسكري والثقافي، وهذا المكون الثاني عزل (فجيح) تماماً عن المدن الجزائرية التي كانت ترتبط بها قبل الاحتلال، إلا أن الفضاءين ورغم حزمة السلبيات التي توفرت لفجيح هما مَن أعطيا القيم الجديدة للمكان المتمثلة بالصمود أمام المحتل والغزاة، وبذلك أعاد النص اكتشاف المكان وفق رؤية آنية (حاضر الكتابة) أعادت للمكان أهميته في الديموغرافية الحديثة والمعاصرة للمغرب العربي فالمكان المعزول الصحراوي/ الريفي وفرّ بيئة ورجالات في منتصف القرن الماضي للوقوف أمام المد الاستعماري وبناء النهضة الحديثة.

4- سيميائية المكاني الفجيجي.

يمكن للدراسة أن ترصد هذه العلامات على المستوى البنائي للمكان وما يترشح عنه من دلالات من خلال تتبع الأمكنة التي رسمت اللوحة المتكاملة للمشهد المكاني في فجيح والتي من أهمها: (البيت والمسيد ومن ثم المدرسة) وقد تم التعريف بهم إلا أن هذا لا يكتمل إلا عند استعراض الآلية الثانية التي تؤسس للمكان المديني (فجيح)، وهذه الآلية على النقيض من الأولى، فهي لا تعمد إلى الصور البانورامية المتكاملة للمشهد المكاني بل تعمد الرؤية المتدرجة التي يعرض من خلالها الرائي لمكان محدد ومن خلاله ينتقل إلى الأمكنة الأخرى، أي أن الصورة ستكون متنقلة من الجزئيات نحو المشهد المتكامل الذي يصور المدينة.

*** القصر.**

يأخذ القصر في نص الحفريات معنى ينزاح عن المألوف عندما يدل على التجمع السكني، وهذه التجمعات (الأحياء الكبيرة) تتكون منها المدينة وهي في فجيح (سبعة) والملاحظ أن المبدأ التراتبي يشتغل

في الجزئيات كما اشتغل في المشهد الكلي (المدينة) وثنائية المركز/ الهامش تفصح عن مدلولاتها في هذه البنية المكانية لاسيما وأنها تأسست على الطابع القبلي، فهذه التجمعات ذات أصول قبلية واحدة، مما يجعلها عصبة متقوقعة على نفسها ضمن حدود طوبوغرافية ونفسية وتاريخية تعطي لكل (تجمع) مزايا تختلف عن الآخر، "وهذه القصور بعضها آهل بالسكان والبعض الآخر (خرب) بسبب الحراك الاجتماعي والتنافس القبلي على السلطة والزعامة ومن أهم القصور قصر (زناكة) موطن الراوي/ الشخصية وقصر (أولاد جابر) الخرب والمتجذر تاريخياً حيث يختلط فيها التاريخ بالمخيال الشعبي، إلى الجنوب من هذه القصور كلها، وعلى أسفل هضبة فجيج يقع قصر زناكة (وبالأمازيغية: إزناين) على السهول الممتدة إلى الجزائر، وهو أكبر القصور جميعاً وربما يعدلها مساحة وسكاناً وأهله، يعتبرون أنفسهم (المركز) والباقي أطراف وبما أنهم كانوا على خط المواجهة مع الفرنسيين في الجزائر فلقد كان نصيبهم من المقاومة والتضحية أكبر، وكانوا لذلك يعتبرون أنفسهم أشجع وأقدر على المقاومة (...)، وفي هذا القصر، قصر زناكة، ولد صاحبنا وفيه نشأ نشأته الأولى، ومع أن أهله من أمه كانوا في الأصل من قصر المعيز من أولاد سيدي عبد الجبار، وأن أهله من أبيه كانوا أصحاب قصر خاص بهم يحمل اسمهم ، فإنهم جميعاً، أعني أهله من أبيه وأهله من أمه، كانوا قد سكنوا قصر زناكة منذ مدة طويلة (...)، ولم يكن قصر أولاد جابر وحده (القصر الخراب) في مدينة فجيج، بل كانت هناك قصورٌ أخرى خربة، بعضها على أطراف المدينة وبعضها الآخر على مقربة من وادي زوزفانة الذي تمتد على ضفتيه بعض حقول النخيل التابعة لأهل زناكة خاصة ويستفاد من سرد المؤرخين لوقائع تاريخ المغرب أنه كان لمدينة فجيج دور هام في كثير من الأحداث والثورات منذ الفتح الإسلامي، يبدو ذلك واضحاً عند ابن خلدون الذي ذكر فجيج مراراً (واحياناً يكتبها فكيكا) في تاريخه، وهناك من يرجع ببعض القصور الخربة في هذه المدينة الى زمن الادارسة" (الجابري ، 1997، 22-23).

والملاحظ في هذا المقتبس أن ثنائية المركز/ الهامش المتغلغلة في ثنايا النفس الإنسانية والمترسبة فيه عبر تاريخه الإنساني الطويل لارتباطها بالسلطة والإهمال قد تحركت بفعالية عند بناء المشهد المكاني وكشفت عن الدلالات التي اختفت وراء البناء التراتبي للقصور الأحياء هذا البناء ذو الرؤية المتدرجة والطبقية/ القبلية في تقسيمها للمجتمعات.

*** الماء (عين تزادرت/ المغسل) (ثنائية الانفتاح والانغلاق)**

تمثل فجيج واحةً ومسطحاً مائياً وسط الفضاء الصحراوي المحيط بها، لذلك كان للفضاءات المائية أهمية بالغة في رسم المشهد المكاني، وهذه الأهمية منبثقة من جانبين، الاقتصادي (ندرة الماء في أماكن صحراوية) والاجتماعي (الماء مكان للخروج من دائرة الأماكن المغلقة)، لذلك كان لهذين المكانين أهمية في الافصاح عن التضاد القائم بين الفضاء الصحراوي المحمّل بحزمة من الدلالات الإيجابية والسلبية، والفضاء

المديني (فجيح) بين حضارة (الماء/ الاستقرار/ التوطين) وحضارة الصحراء حيث اللاستقرار والانغلاق والرحيل، إن التقابل الضدي بين الفضاء المفتوح المتمدن (نوعاً ما) وبين الفضاء المغلق (البدائي) هو من يؤطر المشهد المكاني لاسيما مع وجود عين تزادرت التي توحي بالحياة واستمراريتها والمدينة واستقرارها والسلطة المؤسسة لواحة وسط صحراء، لذلك تمارس هذه البنية المكانية سلطتها وفعاليتها في الواقع وفي النص السيري الذي يأخذ منحى السرد التوثيقي وهو يكشف عن السلطة التي منحت لجده بسبب الماء،" إن ندرة الماء في الفضاء الصحراوي أسست عبر تاريخ متواصل ومتوارث للسلطة التي كانت للمكانات المائية كان هذا الجد يقوم بمهمة المتصرف (أسرايفي) لحصص ماء تزادرت التي كان يملكها أحد أقارب العائلة من الأغنياء بقصر الوداغير (...) كانت عين تزادرت إذن المصدر الرئيسي للماء في فجيح ولقصر زناكة بالخصوص، وكان ماء هذه العين– وما زال– لا يزيد ولا ينقص، فقد شُيّد مخرج الماء فيها بشكل يجعل صبيبها ثابتاً منتظماً طوال السنة، ثم وزع على قنوان رئيسية ذات حجم واحد يعطي كل منها صبيباً مساوياً لصبيب الأخرى، والصبيب الذي تعطيه الواحدة من هذه القنوات الرئيسية في مدة خمسة وأربعين دقيقة يسمى (الخروبة) (بالأمازيغية تخروبت)، وكان عدد منها في ملكية جماعية يستفيد منها السكان جميعاً، بينما كان الباقي وهو الأكثر في ملكية الخواص يباع ويشترى، وكانت الخروبة من ماء تزادرت، وما تزال إلى اليوم، سلعة لا تبور إذ كانت أهميتها وما تزال كأهمية الذهب في أسواق المال" .

(الجابري، 1997، 31)

إن البعدين الاجتماعي والاقتصادي أهم ما يترشح عن العلاقة التضادية التي تتحول إلى تكامل بين الفضاءين (الصحراء/ الماء)، ويلاحظ كذلك أن عملية استنطاق هذا الفضاء المهجن تستلزم تجميع بغية الأمكنة التي قد تحمل دلالات مقاربة، إلا أن العلاقة بين المكان (المغسل) والكائن تأخذ منحىً جديداً، فهذا المكان يمثل استثناءً جديداً ومغايراً للأمكنة الأخرى ذات الطابع الرجولي، بينما يشير فضاء (المغسل) إلى دلالات مركبة تماهي بين الانفتاح والحرية فضلاً عن الدلالات المكبوتة والإيحاءات الجنسية للعلاقات المحرمة التي تتم في الخفاء، فالرغبات الجنسية في مجتمع محافظ يندد فيه الاختلاط تجد في هذا الفضاء ملاذاً لها كان هناك في قصر زناكة مغسلان، أحدهما يسمى اعمارة وهو لحي ازناين الذمي سمي القصر باسمهم بكرة وكثرة ساكنيه ويقع شرقاً، والثاني يسمى مرحاض وهو في حي اداريت إلى الغرب، كانت النساء يذهبن إلى أحد المغسلين، ويعدن منه، محجبات وعلى ظهورهن جفناتهن المملوءة بالغسيل، والمغطاة هي الأخرى بالحجاب الذي يرتدينه (...) ويقال استناداً إلى ما احتفظت به ذاكرة صاحبنا من أخبار التقطها على عهد طفولته الأولى، والأطفال يلتقطون عادة مثل هذه الأسرار بسهولة ويسر، إنّه في هذا الوقت، وقت عودة النساء بالماء من السواقي العليا وخروج الرجال للاغتسال والوضوء قبيل الفجر، حدّث ذات يوم،

مصادفة أو بموعد سابق، أن جرى خلسة وبسرعة وفي ركن من أركان الطريق، ما يجري بين رجل وامرأة من علاقات محرمة، فكان ذلك من الحوادث النادرة التي ينتقل خبرها(ليزا،2001، 28).

*** الأضرحة.**

تلعب الغيبيات والحياة الروحية دوراً في تشكيل ذهنية الشخصية الفجيجية في نص السيرة، التي تكشف عن وجود عالم موازٍ للواقع عالم لا مرئي، السلطة فيه للروحانيات والغيبيات، وتتأسس هذه الحياة الروحانية في فضاء محدد يبتعد عن فضاء المسجد بقدر ما يقترب منه، إلا أن سلطة فضاء الأضرحة فقدت الكثير من قيمتها بعد الحركة النهضوية السلفوية التي تعمدت تقويض هذه السلطة التي عدتها سبباً في التخلف على المستويين الفكري والديني، وكذلك الحياتي المعاش لذلك اختلفت الرؤية القبلية (الماضوية/ التقديسية)، لهذه الأمكنة عن الرؤية الآنية المرتبطة بالتطور الفكري لدى الرائي/ الواصف فحلت محلّ الرؤية الأولى رؤية واقعية عقلانية سقط عنها الرداء التقديسي للماضي وحلّت مكانها الرؤية النقدية التي عملت تحرير هذا الفضاء من قيود الذهنية التقليدية " أن الأضرحة في مدينة فجيج كثيرة ومتنوعة الاختصاصات فاختصاص ضريح سيدي منصور غير اختصاص ضريح سيد الحاج محمد أو فضل، غير اختصاص ضريح سيدي بايزيد (...) كان بعض الأضرحة قبوراً لعلماء من فجيج مثل ضريح سيدي عبد الجبار في قصر المعيز (...)، ومهما يكن فقد كانت هذه الأضرحة بمثابة مستشفيات ترتادها النساء لطلب الشفاء لهنّ ولأبنائهن، وكثيراً ما يتطلب الاستشفاء المرابطة في الضريح عدة أيام، ومن هنا اسم الضريح بالأمازيغية (أمرابط)، ويطلق أيضاً على دفينه على أن المرابطة في الضريح لعدة أيام لم تكن هي القاعدة، لقد كانت الزيارة من حين لآخر، وتقديم الشمع والفتوج (تمر أو خبز في الغالب) لمن يقوم على خدمة الضريح وخدمة زواره تكفي.. أما ضريح سيدي يوسف الذي زاره صاحبنا مع خاله عند الانتهاء من أشغالهما في الوادي فلم يكن فيه محافظ ولا محافظة، لقد كان بعيداً ونادراً ما يرتاده الناس، كان الضريح عبارة عن قبة في داخلها قبر، أو على الأصح أحجار منصوبة في هيئة قبر، وعلى أحد الجدران كوة يعلوها سواد دخان باهت مما يدل على أن الشمع لم يوقد في الضريح منذ مدة، ولم يكن الخال قد اصطحب معه شمعاً، ولذلك اكتفى بوضع مُدّ من تمر استخرجه من **خرود** كان على كتفه، في حفرة كانت على شكل إناء، على مسافة قريبة من مكان الرأس في القبر، إنه واجب الزيارة، كان الخال يتمتم بأدعية لم يكن صاحبنا يتبين ألفاظها بَلْهَ معناها، ولكنه أدرك أن عليه أن يقلد خاله فيرفع كفيه بالدعاء هو الآخر، حتى إذا جاء وقت قراءة الفاتحة قرأها معه، ثم سلم" (الجابري ، 1997، 58–59).

*** المجامع.**

أمكنة ذات خصوصية في المجتمع المغربي وتدل على المجالس وتكاد تحل بديلاً عن المقاهي، وترتبط

هذه المجامع بدلالات سلبية وإيجابية وإن غلبت الأولى على الثانية/ خصوصاً وأن هذه المجالس تستخدم لإهدار الوقت وتكشف عن طبيعة المدينة الريفية المعزولة وسط الصحراء على الحدود، هذه العزلة فرضت ملامحها على المكان، مما فعّل من إمكانية إنشاء أمكنة تتلاءم مع البيئة وتعد في الوقت نفسه مصدراً للمعلومات والأخبار والتسلية ومضيعة الوقت، مما يجعل تصنيف هذه المجالس على أنها بؤر مكانية اجتماعية مفتوحة حسب ترتيبها (شيوخ/ كهول/ شباب)، وهذه البؤرة تتحول في النص السيري إلى صورة صادقة للمجتمع، وتكشف عن جوهر العلاقات الإنسانية والثقافية والاجتماعية المتأصلة، والمتجذرة فيه، " وعلى الرغم من الدلالات السلبية الدالة (كثرة الكلام/ إهدار الوقت/ الجلوس في الطرقات) هي التي تترشح أولاً عن هذه البنى المكانية المؤطرة بالرؤى المتدرجة التي تلازم مكاناً واحداً، إلا أن ذلك لا يمنع من ظهور دلالات إيجابية ولاسيما تلك التي تتعلق بتحول المجامع إلى منتديات فكرية/ فنية كما يحدث في الـ تومزيا أو التشبيه الكاريكاتوري إلى تتحول هذه المجالس إلى ما يشبه المسرح الذي يعتمد على الارتجال وممثل واحد كانت المجامع هي المكان المفضل عند الكهول والشيوخ لتمضية الوقت كان الجلوس يبدأ في الضحى، وأحياناً قبلها، ولم يكن الرجل يغيب عن مجمعه إلا في أيام السقي، سقي البستان مرة في الأسبوع في الغالب، أو يوم السوق وأيام الحرث والحصاد... كان زمان إذن يستغرق معظم النهار، كل نهار يجلس رواد كل مجمع، وفي الغالب يكونون من نفس الحي، في صفين متقابلين تحت السقيفة متكئين على الجدار، وبعضهم يستلقي على الأرض متوسداً مرفقه أو طوبة.. شغلهم الشاغل القيل والقال" .

(اوسبنسكي ،1999 ،64-65)

إنّ المقتبس النصي الدال على وجود دلالات أخرى في المجامع ولا سيما الـ(تومزيا) فهو يعرض لهذا المجمع الغني/ الشعبي الذي يجمع بين التسلية والترفيه والتطور الذي حدث على غط المجالس كانت مجامع تومزيا عند أهل فجيج هي متعتهم المفضلة، يعقدون لها الجلسات في المجامع والأعراس" ونادراً ما تنتهي وليمة بدون ختمها بجلسة من هذا النوع من التشبيهات الكاريكاتورية التي تنتزع الضحك انتزاعاً (...) كانت جلسات تومزيا ولا تزال تتميز بروح رياضية عالية. فالشخص الذي يكون موضوعاً للتشبيه الكاريكاتورية كان عليه أن يضحك مع الضاحكين، وإذا هو أراد أن يكيل الصاع صاعين لمن جعله موضوع تومزيا فعليه أن يرد عليه برسم صورة كاريكاتورية له من خلال تشبيه أكثر ابداعاً وبلاغة (...) فالضحك لا يكون على الشخص موضوع تومزيا بل يكون بسبب التشبيه ومن أجل الاحتفاء به، اعترافاً بغرابته وإبداع الخيال فيه ومن آداب تومزيا تجنب التعرض لما يقدح في كرامة الشخص، والاقتصار بالتالي في التشبيه على هيئة أو لحيته أو بطنه... وبصورة عامة الوقوف عند المظهر الخارجي" .

(الجابري ، 1997، 66-67)

***أماكن اللعب.**

يمكن عدّ هذه الأمكنة ذات أهمية بالغة في النص السيري قيد الدراسة، خصوصاً وأن السيرة في معظم تفصيلاتها تعود إلى مرحلة الطفولة والمراهقة، مما يجعل من هذه الأمكنة حاضرة في النص، ومتآزرة مع باقي الأمكنة في تكوين المشهد المكاني المتكامل عن مدينة فجيج وترسم صورة وثيقة للحياة الاجتماعية في منتصف القرن الماضي، واستنطاق النصوص الخاصة بهذه الأمكنة يكشف عن الذكرى المغلفة بالحنين لتلك الأمكنة وأصحاب الطفولة المبكرة، إن أهم لعبة كانت تنفرد بها الفرقة التي انضم إليها صاحبنا فقدت الكثير من أهميتها عند تحول فجيج إلى مركز للحركة الوطنية، وهذا ما نجده عند مقاربة فضاء الدار البيضاء التي تقررت مكانتها ومركزيتها عندما أضيف إلى مجموعة القيم التي تحملها هذه المدينة البعد الوطني/ الجهادي المقاوم للمحتل، فيتم التشييد المكاني من متابعة الجزئيات التي بلورته في صورته الكلية، ومن أهم الجزئيات التي تم التركيز عليها تلك الأمكنة الخاصة بسكن أو دراسة الطلبة الفجيجين القادمين إلى الدار البيضاء، " كانت تلك الدكاكين . وتقع في حي درب الشرفاء الطلبة . تحتوي على طابقين: أرضية الدكان وسدة وهي عبارة عن سقف من الخشب يتوسط ارتفاع سقف الدكان، كانت ماكينات الخياطة تحتل الأرضية، بينما كانت السدة مخصصة لخزن البضاعة وأيضاً للنوم إذا كان صاحب الدكان غير متزوج ولا بيت له، على هذه السدات إذن، كان يسكن التلاميذ الفجيجيون في الشهور الأولى من التحاقهم بالدار البيضاء: فيها كانوا ينامون، وعليها أو على أرضيتها يهيئون أكلهم، أما غسل ملابسهم وتنشيفها فقد كان يتم في العوينة المجاورة، التي كانت تحتوي، إضافة إلى صنابير الماء، على أحواض لغسل الأواني والثياب" .

(الجابري، 1997، 142)

إن الرؤية الذاتية هي الغالبة في المقتبس السابق، والتجربة الشخصية (الذات الراوية) هي من أطّرت المشهد المكاني، فلم يتم بناء صور مكانية تكشف عن جماليات المكان في الدار البيضاء بقدر ما تحكمت التجربة الماضوية المتأسسة على فترة زمنية شديدة الخصوصية في تاريخ السيرة في استنطاق أمكنة ترتبط بالتجربة الفردية أو الجماعية.

***(الاسكندرية . بيروت . دمشق) توجهات الانموذج/ وهم الانموذج**

لم تزل التراتبية الثقافية/ الحضارية/ التاريخية تشتغل في هذا النص السيري، ولاسيما عند رسم ملامح الفضاء المديني، والملاحظ أن النظرة القبلية المؤسسة على مرجعيات تاريخية تعود إلى الفتح الإسلامي، وظهور حواضر عربية على أنها مراكز سياسية وحضارية (بغداد/ دمشق/ القاهرة)، هذه الرؤية القبلية قد عملت على توجيه النص وبناء مشاهده المكانية فضلاً عن ذلك أضيف إلى هذه الرؤية القبلية رؤية آنية (زمن التجربة/ الفعل) وجدت في الشرق العربي مركزاً حضارياً ووطنياً (مرحلة صعود نجم المد القومي أيام

عبدالناصر)، هذه الرؤية المركبة (القبلية المترسبة في الذات المغاربية) و(الآنية المعاشة من الشخصية).

صاغت الشخصية المكان وفق ثنائية الشرق المتقدم والغرب المتخلف، وهذه الثنائية هي قراءة معكوسة للثنائية الشهيرة الغرب الحضاري والشرق البربري المتأخر، ويمكن أن نرصد أن بناء المشهد المكاني في هذه المدن الثلاث مرّ بمرحلة أولى هي (الصدمة)، واكتشاف وهم الانموذج الحضاري المتفوق لاسيما مدينة الإسكندرية التي تتبدى فضاءً شبيه بفضاءات أخرى في المغرب إن لم يكن أسوأ وبذلك يتم سلب السلطة التي مارسها المكان الشرقي عبر تاريخه الطويل، لقد كانت مصر– والشرق العربي عموماً– قبلة الناس في المغرب، فهي الوطنية وهي التحرير وهي التقدم، وكانت النموذج والمثال للشعوب التي تناضل من أجل استرجاع سيادتها واستقلالها وبناء غدها (...) كل شيء فيها أبعد ما يكون عن الصورة التي كانت في أذهانهم عن مصر (...) لم تكن هذه المناظر غريبة عن صاحبنا ورفاقه، فلقد اعتادوا على مشاهدتها في الأفلام المصرية، ولكنهم كانوا يعتقدون أنها كانت تنتمي إلى أيام زمان وتصوّر تأخر الماضي في مقابل تقدم الحاضر، الحاضر الذي كانوا يرونه في الأفلام المصرية نفسها مجسماً في السيارات الضخمة والسكنى الرفيعة وحفلات الرقص والزفاف(...) ومع ذلك فـ (الواقع لا يرتفع) كما يقال،" لقد كان وقع الصدمة قوياً شديداً على نفسه، وذلك إلى درجة أنه كان يحس بما يشبه الندم على مجيئه إلى المشرق للدراسة، وهو احساس لازمه طوال المدة التي قضتها الباخرة في طريقها من الاسكندرية إلى بيروت، وعبثاً حاول مطاردة هذا الإحساس باستحضار حال الأحياء الشعبية بالدار البيضاء، إن صورة مصر النموذج والمثال، كانت تجعل المقارنة غير مشروعة ولا مقبولة أمام ناظرية" (الجابري ، 1997، 156–157).

إن الصورة الواقعية المرسومة للمكان والمعتمدة على المعاينة المباشرة هي من قوضت السلطة المركزية للمكان الشرقي المرسوم عبر صورة تخييليه تتوهّم وفق مرجعيات تاريخية وشعبية يجعل من العلاقة بين الرائي والمكان علاقة تبعية وانبهار، وتقديس، لكن المفاجأة كانت عندما حصل التطابق بين الفضاءين وكان كلاهما دالاً على التخلف والانحدار الحضاري.

إلا أن المكان الشرقي سيعود وعبر الصورة الواقعية المرصودة بالمخيال التاريخي والشعبي، إلى التوهج من جديد بوصفه بؤرة مركزية تعيد تشكيل المكان وفق الرؤية القبلية، وبذلك يعمل الرائي على اغناء المكان السيري عبر تعدد بنياته المتجاورة والمتباعدة والمتغايرة دلالياً. هنا كانت بيروت فضاءً جاذباً على النقيض من الفضاء الاسكندراني الذي تجلى في هذا النص مكاناً طارداً.

(بوعرفة . وجدة . الدار البيضاء) (إشكالية الرؤية)

إن الثنائية الفكرية/ الثقافية/ السياسية (المركز. الأطراف) قد اشتغلت في البنية المكانية الواحدة (مدينة فجيج)، إلا أن الملاحظ أن هذه الثنائية ستبدأ مع التطور الزمني للسيرة، تعمل وفق مبدأ تراتبي فيثمة الرحيل

(المحكومة بها الشخصية) ستوفر مساحة مناسبة للرؤية، فتتحول فيها دلالات الأمكنة وفق مبدأ اتساع الدائرة فمع بروز الأمكنة الجديدة المغايرة للواحة الزراعية الصغيرة وسط الصحراء ستتبدل معها المنظومة المتحكمة في بناء الأمكنة، فكلما اتجهت الشخصية نحو الحواضر الاقتصادية والثقافية والسياسية وسط البلاد وعلى سواحله، أصبحت عند ذلك المدينة القديمة هامشاً والجديدة مركزاً.

هذه الرؤية تبدت أولاً عند الرحلة الاستكشافية الأولى خارج فضاء مدينة فجيج نحو (بوعرفة) وهذه الرؤية كشفت للرائي والقارئ عن الفروقات التي ميزت الفضاءين المتجاورين والمختلفين، " إن صاحبنا يتذكر جيداً أنه انتابه نوع من الذهول عندما وصل بوعرفة، فلقد كانت مبانيها وأزقتها تختلف تماماً عن مباني وأزقة قصور فجيج. لم تكن أبنيتها من الطين والطوب وخشب النحل، ولا كانت أزقتها ضيقة مسقفه جزئياً أو كلياً كما هو الحال في فجيج، بل كانت مبانيها من الحجارة والجير والإسمنت، وكانت شوارعها واسعة عارية، أما دكاكينها فكانت مصفوفة على جانبي الطرق الرئيسة شأن القرى الحديثة، بالفعل كانت بوعرفة قرية حديثة تقع على سفح جبلين يقع خلفهما في شعاب ضيقة منجم معدني تربطه بمنجم جرادة شمالاً ومنجم بشار جنوباً سكة الحديد التي كانت محطتها بجانب المنجم وعلى بعد بضع كيلومترات من مركز بوعرفة " (الجابري، 1997، 103-104).

إن الفضاء المشيد في النص السابق يحمل دلالات التمدن (ولو جزئياً) فهناك الشوارع وسكة الحديد والأبنية فضلاً عن الجانب الاقتصادي / الصناعي / التجاري الذي يميّز الفضاءات المدنية، هذا المشهد يحوّل (فجيج) عند المقارنة حسب رؤية مبنية على ذاكرة طفل وحاضر الكتابة إلى قرية زراعية بدائية منقطعة عن العالم وسط فضاء صحراوي يحيط بها ويحملها دلالاته المختلفة.

وهذه المقاربة تكاد تطبق ولو بدرجات متفاوتة عند الانفتاح على فضاءات مدنية أخرى من أهمها (وجدة)، "كانت مدينة وجدة تبدو لصاحبنا كبيرة ضخمة، فالشوارع طويلة عريضة، والدكاكين كثيرة، والناس أكثر من أن يُحصوا، والمتحركون والواقفون منهم أكثر من الجالسين، وذلك على عكس ما اعتاده في مسقط رأسه، حيث المارة قليلون، أما الأزقة المسقوفة فمنعدمة تماماً، وكذلك مجامع القيل والقال، فلم يكن الناس في وجدة يجلسون على جانبي الطريق، لا في مجمع ولا منفردين كما هو الشأن في فجيج، والشيء الذي شدّ انتباه صاحبنا في شوارع مدينة وجدة وساحاتها المركزية هو المقاهي التي كانت تعج بالناس، يشربون الشاي أو القهوة، ويستمعون لأغانٍ يذيعها مكبّر للصوت مركّب على باب المقهى، إما نقلاً عن إذاعة وإما عن أسطوانة" (الدليمي، 1999 ،114).

إن الرؤية المتدرجة الواصفة للمشهد المكاني متأسسة في بداية النص على الذاكرة الصفولية التي تقيس الأشياء وتشكل صورها في المخيلة على وفق أحجامها، لذا كان هذا المبدأ هو الأول عند المقارنة بين

الفضاءين، إلا أن الرائي ينتقل بعد ذلك إلى أكثر من جزئية تكشف عن الفروقات الجوهرية بين الفضاء الريفي / الزراعي حيث (الهدوء/ الرتابة/ التكرار/ إضاعة الوقت) والفضاء المديني بتجلياته التي تعبر عنه ومن أهمها (البنايات الكبيرة/ الشوارع الطويلة/ المقاهي/ الساحات المركزية/ الصخب/ الفناء/ الازدحام/ التقاليد الممزوجة بالحداثة والحضارة)، كل ذلك يجعل من ثنائية (البداوة/ الحضارة) (الهامش/ المركز) تحضر عند المقارنة، وعند بناء المشهد المكاني لتميّز بين هذين الفضاءين المتجاورين في وطن واحد، والملاحظ كيف أن هذه المراكز الاقتصادية والتاريخية.

وأخيراً فإن القراءة السيميائية لإشكالية المكان في نص السيرة الذاتية، قد كشفت عن أن المكان في سيرة (حفريات الذاكرة من بعيد)، قد انقسم بين مجالين أحدهما الواقعي والثاني المتخيل، وأن هذه السيرة وعلى الرغم من طابعها التسجيلي إلا أن التخييل الفني كان حاضراً فيها مما منحها بعداً دلالياً عميقاً.

المصادر

الجابري، محمد عابد (1997): حفريات في الذاكرة من بعيد، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت.

عزام، محمد (2003): تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحدايثة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

باشلار ، غاستون (1998): جماليات المكان، ت: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات، ط2،بيروت.

لوتمان وآخرون (1988): جماليات المكان، عيون للمقالات، ط2، الدار البيضاء.

بنكراد، سعيد (2012): السيميائيات (مفاهيمها وتطبيقاتها)، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط3، اللاذقية.

اوسبنسكي ، بوريس(1999): شعرية التأليف (بنية النص الفني وانماط الشكل التأليفي)، ت: سعيد الغانمي وناصر حلاوي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

حسين، حسين خالد (2000): شعرية المكان في الرواية الجديدة (الخطاب الروائي لادور الخراط نموذجا)، مؤسسة اليمامة الصحفية (كتاب الرياض 83)، الرياض.

مبارك، حنون (1987): دروس في السيميائيات، دار توبقال، ط1، الدار البيضاء.

النعيمي، فيصل غازي (2020): العلامة والرواية (دراسة سيميائية في ثلاثية أرض السواد)، دار ماشكي للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، الموصل.

سوسير، دي (1987): علم اللغة العام، ت: يوئيل يوسف عزيز، مراجعة: مالك المطلبي، دار آفاق عربية، ط1، بغداد.

يقطين، سعيد (2001): قال الراوي (البنيات الحكائية في السيرة الشعبية)، سعيد يقطين، المركز الثقافي

العربي، ط2، بيروت.

الأحمر، فيصل (2010): معجم السيميائيات، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط1، بيروت–الجزائر.

الدليمي، منصور نعمان (1999): المكان في النص المسرحي، منصور نعمان الدليمي، دار الكندي للنشر والتوزيع، ط1، اربد، ط1.

غارينية، ليزا (2001): التاريخ الطبيعي للذكريات، ت: محمد ياسر منصور، مجلة الثقافة العالمية، ع(10).

هياس، خليل شكري (2007): القصيدة السيرذاتية واستراتيجية القراءة في الشعر الفلسطيني المعاصر، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة الموصل.

Aljabri, muhamad eabid (1997): hafriaat fi aldhaakirat min baeid, markaz dirasat alwahdat alearabiati, ta1, bayrut.

Eazam, muhamad (2003): tahlil alkhitab aladabii ealaa daw almanahij alnaqdiat alhidaythati, manshurat atihad alkitaab alearabi, dimashqa.

Bashlar , ghastun (1998): jamaliaat almakani, ta: ghalib hilsa, almuasasat aljamieiat lildirasati, ti2,birut.

Lutman wakhrun(1988): jamaliaat almakani, euyun lilmaqalati, ta2, aldaar albayda.

Binkrad, saeid (2012): alsiymyayiyaat (mafahimuha watatbiqatiha), dar alhiwar lilnashr waltawziei, ta3,allaadhiqiati.

Awsbniski , buris(1999): shieriat altaalif (bniat alnasi alfaniyi wainmat alshakl altaalifi), ti: saeid alghanimi wanasir halawi, almajlis alaelaa lilthaqafati, alqahirati.

Husayn , husayn khald(2000): shieriat almakan fi alriwayat aljadida (alkhitab alriwayiyu ladwr alkharat anmwdhjaan), muasasat alyamamat alsahafia (ktab alriyad 83), alriyad.

Mbarak , hanun (1987): durus fi alsiymyayiyaati, dar tubaqal, ta1,aldaar albayda.

Alnueimi, faysal ghazi (2020): alealamat walriwaya (dirasat simyayiyat fi thulathiat ard alsawadi), dar mashki liltibaeat walnashr waltawziei, ta2 ,almusl.

Susir, di (1987): eilm allughat aleami , ta: yuyiyl yusif eaziza, murajaeatu: malik almatlabi, dar afaq earabiatun, ta1, baghdad.

Yqtin, saeid(2001): qal alraawi (albinyat alhikayiyat fi alsiyrat alshaebiati), saeid

yaqtin, almarkaz althaqafia alearbia,t2, bayrut.

Alahmaru, faysal (2010): muejam alsiymyayiyaati, aldaar alearabiat lileulum nashiruna, manshurat aliakhtilafi,ta1, bayrut-aljazayir.

Aldilimi, mansur nueman (1999):almakan fi alnasi almasrahi, mansur nueman aldilimi, dar alkinadii lilnashr waltawziei,ti1, arbid, ta1.

Ghariniat, liza(2001):altaarikh altabieiu lildhikrayati, ti: muhamad yasir mansur, mijalat althaqafat alealamiati, ei(10).

Hayasi, khalil shikri(2007):alqasidat alsayrdhatiat wastiratijiat alqiraat fi alshier alfilastinii almueasiri, utruhat dukturah, kuliyat altarbiat lileulum aliinsaniati, jamieat almusl.